14 أكتوبر 14 OCTOBER يومية - سياسية - عامة

الخميس والجمعة - 19 - 20 ديسمبر 2024م - العدد 17798

www.14october.com

الكاتب جورج أورويل 1903 ـ 1950م

رواية عام 1984م كيف تتحول سلطة الرجل الواحد وحكم الحزب المطلق إلى طاعة عمياء تفقد الشعوب رؤية الحقائق

عام 1949م صدرت هذه الرواية في بريطانيا. ومنذ ذلك التاريخ وحتى الراهن نظر إليها على انها ضد حكم الدولة ـ التسلطية، ومنعت من دخول الكثير من دول العالم، بل هناك من قادة الأحزاب السياسية في مراكز القيادة من يرى فيها وثيقة تحريض وتمرد ومنشورا سياسيا يدعو إلى قلب الأوضاع.

نجمي عبدالمجيد

العمل الأدبي السياسي يبين كيفية زراعة الرقيب الداخلي في كيان الفرد ليصبح جاسوساً على نفسه

كانت الدول العربية من ضمن تلك الحلقات الرافضة لما جاء في هذا النص الأدبي ـ السياسي، وبالذات الحكم الجمهوري. فكانت مواقف للأحزاب العربية مثل الاشتراكية والشيوعية والقومية والبعثية والإسلامية بل طالت مواقف الرفض لهذه الرواية في قلب المجتمع الغربي وفي دول المعسكر الاشتراكي كان العثور عليها في حوزة أو جماعة يكون المصير السجن وربما الاعدام.

كتب الكثير عن هذا النص الذي يتجاوز حدود الزمان والمكان، وسوف تظل كما يرى نقاد الأدب وعلم الاجتماع وعلم نفسية الجماهير وعلم الاجتماع السياسي، قراءة كلما تعامل معها الوعي الثقافي في المجتمع يدرك ان الحكم القهري لا يولد إلا أمة مسخاً خارجة عن هوية التاريخ الانساني.

تقدم لنا الرواية عبر فضاء المخيلة الابداعية صورة لبلد ومدينة وأمة لا ترى ولا تسمع إلا لصوت الزعيم، وتسحب مثل الاغنام خلف سلطة الحزب الحاكم، كل ما فيها هو تحت الرقابة والمراقبة حتى اصبح في داخل الفرد كيان يرصد كل ما يقول ويعمل. هكذا يجب ان تصير حالات الجماهير، الطاعة المطلقة وشعارات تمجد شخصية الزعيم الأوحد، ذلك المرض العقلي والنفسي الذي اصاب حكام الدول العربية.. هي عبادة الفرد الحاكم فوق الأمة بل فوق المقدسات انه هناك خلف أسوار القصر الجمهوري. أما المسافات التي تفصله عن الشعب ليس فيها سوى رجال الأمن والسجون والقبور، تلك سياسة هجنت عقليات الأمة على ان السلطة هي أداة قمع وقهر طبقي بيد من يملكها، والأمة لا تحكم إلا عبر القبضة الحديدية وتلك قاعدة تعاملت بها عدة أنظمة عبر عقود طويلة، وفي الدول العربية عملت الأحكام الجمهورية على نفس المبدأ.

في معجم المؤلفات السياسية طرحت رؤية فكرية حول ما جاء من أشخاص وأحداث من وجهة نظر الفكر السياسي الفرنسي ومما جاء: (وينستون وجوليا موظفان من أدنى درجات السلم الوظيفي في حزب يحكم سيداً على أوسيانيا، الدولة التي تعيش في حالة حرب مزمنة أحياناً مع استازيا وأحياناً مع أوراسيا. ومثل كل أعضاء الحزب يمكن لوينستون وجوليا ان يراقبا بدقة ليلاً ونهاراً من قبل أجهزة التصوير المتلفزة الموضوعة في كل مكان، وأن تشي بهما كتائب من جواسيس الحزب الشباب.

ولهذ فإن عليهما مكرهين ان يقمعا افكارهما المجرمة، وان يصيحا معاً ضد المرتد الخائن غولدشتاين وان يرددا شعارات الحزب: الحرب هي السلام، الحرية هي العبودية، والجهل هو القوة).

هنا نقف أمام بعض اطروحات العمل السياسي الذي نفذ من قيادات لا ترى من أساليب في إدارة الدولة وعلاقتها مع الأمة إلا في هذا الاتجاه.

الدولة هي عملية انتاج للقوة في مختلف جوانبها، فان فقدت الدولة هذه الصفة يذهب المجتمع نحو حافة التدمير.

والشعوب ان رأت في السلطة الرخاوة تستبيح كل المحرمات وتضرب بالقوانين عرض الحائط وتفرض الفوضى؛ لان الشعب ما هو إلا خليط من الفضائل والجرائم.

ومن الشعوب التي لا تحكم إلا والسياط نازلة على ظهورها والسجون منازل تأديبها، وقد يرى البعض في هذا ظلم الدولة وقهرها للناس.

غير ان هناك من يرى: فضيلة ظلم بعض الأفراد يكون في صالح حفظ أمن الغالبية، وحتى تظل موازين المجتمع عند حدود المعقول.

وقد شاهدنا في عدة دول كيف انهارت الأمة بعد سقوط الدولة وتحولت حياتها إلى حرائق وخراب، ولم تقدر الفوضى ان تصنع لها حتى رغيفا واحدا كي تأكل.

لهذه الرواية عدة أبعاد في القراءة ـ التأويل النصي، بمعنى ان العمل الابداعي في هذا المستوى تتحرك أبعاده عند أكثر من مسافة في الحدث والزمان.

هنا يطرح علينا تساؤل المواجهة مع التاريخ: لماذا سقطت سلطات الحزب الواحد والزعيم الأوحد في دول العالم؟

وهنا أيضاً تساؤل النص الأدبي أمام العجز السياسي: كيف قدر الكاتب جورج أورويل ان يرى صورة تهاوي هذه الأنظمة في المستقبل؟

يصف النص الروائي حال المدينة التي تجري فيها الأحداث، هي غارقة ما بين الظلام والضباب، حالات الناس فيها وكأنهم في خنادق الحرب والموت. الاستعداد للقتال دائماً ما يضرب سمع المواطن في الشوارع، الانجازات الكبرى لقائد الحزب تتصدر نشرات الأخبار، الحرب الداخلية لكل من يخرج نظام الحزب من واجبات كل عضو في الحزب، كل شيء يتحرك وسط آليات فكرية عقائدية هي مثل الحق المنزل.

كذلك تقدم الرواية معالم من الصراعات في عمق هذا الكيان السياسي. هنا نقف أمام قواعد تنافس الرفاق على السلطة وكيف لرجل الدولة القائد التعامل في هذا الأمر الذي له خواص في عالم الجريمة السياسية.

هناك يرى من عقليات علم وإدارة الصراع في هذا المجال ان الدولة هي لعبة الخداع السياسي، وعلى رجل الدولة الزعيم ـ القائد إعادة غربلة صفوف رجاله بين وقت وآخر؛ لان استمرارية نفس الصور في المشهد السياسي يجعلها تطمح في الوصول إلى كرسي الحكم، وما عليه إلا استخدام ما يكون من الوسائل والطرق ليقود عملية التطهير في داخل مراكز القوى في الدولة، مهما وصلت من حيث البشاعة والعنف، لكن عليه رسم الخطط المناسبة في تصفية هؤلاء حتى تكون النتائج أمام الجماهير محاربة أعداء الوطن والعملاء ومن باعوا أنفسهم لعدو الشعب.

وحتى يتم الحفاظ على أمن وسلامة هذا الوطن كان لابد من ضرب كل خائن وعميل وتسويق غيرها من الكلمات التي تتحول عبر صراعات المراحل إلى مخدر للعامة في مثل هذه الأحداث.

وهذا الخط في أبعاد الرواية لا يخرج عن الصراع مع محيط الدولة. وكأن النص يرسل لنا اشارات عن نفسية الزعيم الذي جعل من الجرائم قانونا لحماية الوطن عبر وسائل القمع، فيطرح نوعية من إدارة الحكم في بناء أجهزة المخابرات، ويكون بناء جهاز التجسس القوي والقادر على سحق أي بادرة انحراف أو خروج على الدولة يصبح أمراً لابد منه.

لأن الشعب لو تركت له منطلقات الفوضى لوضع الدولة تحت أقدامه.

لأنه حين تسقط القبضة الحديدية للدولة في مجتمعات يسيطر عليها الفقر الثقافي ـ السياسي وبيع فروض الطاعة، تصبح الدولة مسخرة لا قيمة لها. ومن الأفضل قتل عدد من الناس مقابل حفظ الأمن العام، على أن تترك لحفنة أو جماعات تمارس الإرهاب السياسي تدخل الوطن والشعب في صراعات ليس من السهل السيطرة عليها، وهذا ما يجري الآن في عدة دول عربية كانت تحكم من قبل الحزب الواحد والزعيم الأوحد، وبعد السقوط، دخلت في محارق الحروب الأهلية، وكأن هذه الرواية رسالة تقول لنا: بعد إرهاب الدولة لا يكون سوى خراب الأوطان.

ومما تطرحه الرواية في مسألة العلاقة بين السلطة والفرد أن الخوف من الحكم يعزز الرغبة في الانتقام والخروج عن مبادئ الالتزام في وثائق الحزب والدولة. هنا تكون بداية عملية التآمر على الزعيم والحزب، حيث يصبح جسد القائد هو المستهدف في الإزاحة عن المشهد السياسي. حيث يتحول عمل قتل الزعيم إلى محو حقبة من السيطرة تجسدت في هذه الذات الواحدة، وبسقوط هذا الفرد ينهار عالم بكامله من أوهام المجد والخلود، لأن الأوطان التي لا ترى للمواطن من هوية ومكانة إلا في السجون، تعطي آليات الخلق المتمردة ضد النظام، لأن هذا الحكم مهما بلغ من الجبروت والقهر يخدر بالشعور بالأمان الدائم، ولا يصحو إلا على انفجار الوضع.

لذلك نجد الكاتب في هذه الرواية قد أرسل لنوعية مثل هذه من الحكام، إشارات الزوال من على عروشهم.

وهناك من نظر على أن كاتب هذه الرواية هو وليد دولة استعمارية ـ بريطانيا، لم يرَ من القضية سوى الجانب الشرقي، وأغفل ما عمل الاستعمار الغربي من جرائم بحق شعوب عديدة دفعت بكل سردياتها إلى عالم التجاهل والنسيان، فهو الصحفي الذي عاصر الحرب العالمية الثانية وصعود نجم ستالين في الاتجاه الماركسي وتطلع حركات التحرر نحو الاستقلال.. وغيرها مما يضع هذه الرواية في دائرة النظرة القاصرة للمواقف الإنسانية في مثل هذه القضايا.

غير أن ما ذهبت إليه وقائع الثورات التحررية، شكل قوة دفاع مادية ومعنوية عن هذا النص الذي ما زال يقرأ عبر تقلبات الأوضاع السياسية في العالم. لكن ما يطرح في جوهر هذا النص من رؤية تجمع بين الثقافي والسياسي، مسألة الانفراد بالحكم ونفي الآخر، وعدم الاعتراف بأن السلطة المطلقة تعاني من تكسرات في دمها، إنها لا تولد إلا في وسط بيئة تعاني من أمراض تكون جرثومة موتها. هنا نجد أمامنا نظرية الانتحار الذاتي ليس للدولة أو الزعيم. بل للأمة حيث لا ترى من بدائل في التغيير إلا عبر السلاح والدم.

يسعى جورج أورويل نحو حقيقة يقدمها للفكر السياسي الإنساني، وهي أن الرعب والخوف من الزعيم والسلطة لا يصنع سوى الأمة المنكسرة والتي ترى في الغدر والخيانة أساليب مشروعة في محاربة النظام، وليس بعيداً من تجذر هذه الصفات في نفس كيان السلطة، وهذا ما حدث لعدة نظم عربية تهاوت في ساعات بالرغم من امتلاكها الجيوش والسلاح؛ لأن الخيانة هي من حسم الأمر في نهاية الصراع على السلطة.

نظر النقد الأدبي لهذا العمل، من منطلق العلاقة الموضوعية بين الثقافة والسياسة. إن دور المثقف والكاتب في المجتمع في منزلة ضمير الأمة، وحين يفقد المبدع هذا الترابط التاريخي، يصبح خارجاً عن الانتماء الفكري لروح الجماهير.

لقد تركت هذه الرؤية للرواية بصمات كبرى في الأدب العالمي. وفي الوطن العربي قُدمت أعمال روائية مثل الكرنك لنجيب محفوظ، وشرق المتوسط لعبدالرحمن منيف واللجنة لصنع الله إبراهيم، وغيرها من الأعمال التي جسدت كارثة الحكم المطلق والحزب الواحد وعبادة الزعيم، وتحويل الوطن إلى خلايا من الجواسيس وسجون التعذيب وإلغاء كل مشاريع التنمية الداخلة في حقوق المواطنة تحت شعار الاستعداد للمعركة الكبرى وهي تحرير فلسطين، فلم تكن النتائج سوى إنزال المزيد من العقوبات بالجماهير.

عبرت رواية الكاتب غسان كنفاني (رجال في الشمس)

شخصية الزعيم في هذا العمل تمجد عبادة الفرد الذي يحكم من خلف أسوار العزلة

أحداث هذه الرواية تنطبق كثيراً على الأنظمة والحكام العرب

عن عجز القيادة عن الخروج من متاهات الصحراء، فكان الموت في جوف الخزان، وكأنه رمز للوطن المغلق والمفقود، الذي تجعل منه قيادة التجارب الفاشلة مقبرة تبدأ المسافة إليها من مسيرة الضياع حتى تصل الأمة إلى العدم، وحين ترمي القيادة بكل الضحايا الذين ماتوا بفعل معرفتها بأن الطريق إلى المخرج لم تكن عبر صحراء الفناء، ولكنها تعمدت المسير من هذا المكان لأن فئة من الجماهير آمنت بأن هذه القيادة العاجزة هي من يصنع الحلول والمخارج، فكان مصيرها القتل غير المباشر، في هذا الخزان الذي يرمز للوطن المفقود والسجين عند قيادة الغت دور الأمة، وهذه الحلقات ربطت فيما بينها رواية عام 1984م التي كانت إشارة تنبيه للشعوب التي حكمت من قبل السلطة القهرية وللأحزاب التي ألغت وعي الأمة في صناعة الدور السياسي لمصيرها.

لقد ظلت هذه الرواية وعلى مدى عقود من الزمن، في خط المواجهة مع الأنظمة القمعية وبالذات في دول العالم التي قادت حركات التحرر، لأن معادلات الاستقلال والكفاح تحولت إلى تصفية حسابات في داخل الاحزاب، من قتل للرفاق والانقلابات العسكرية وخلق الحروب مع دول الجوار، وجعل إيديولوجية الحزب المقدس الذي يمنع نقده وقداسة النص من قداسة الزعيم، والهروب من بناء حقوق المواطنة التي تحولت إلى سجل من التهم والمحاكم والتعذيب في غرف مظلمة، وجعل الوطن معتقلا، وتحول معظم فئات الشعب إلى رقباء، بعضهم على بعض، حتى وصلت الأمور إلى الانفجارات المدمرة والحروب الطويلة لأن سياسة السلطة القمعية عززت عقيدة الدم في النفسية.

حين منعت عدة دول عربية هذه الرواية من الدخول إلى أراضيها، كانت تدرك بأنها ترى في صفحاتها صوراً من أساليبها في الحكم. بل ترى بأن الكاتب جورج اورويل قد رسم حقيقة بصماتها المظلمة التي احاطت بأكبر المسافات من حالة المواطن الإنسانية. وهي تدرك أن هذا لن يستمر مهما بلغت السطوة القهرية لها، الرواية تحذر من الانفجار، حكم الزعيم المطلق لن يطول، لكنها تحذر أيضاً من صعود حكم قهري آخر، وكأن حلقات العنف لا تولد غير العنف الجديد.

حين يصبح الحزب هو العقل الذي يفكر نيابة عن الشعب تغيب هوية الأمة